

أهمية الاستعارة في التسمية الاصطلاحية

عقيلة عليوة
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة باجي مختار - عنابة

ملخص

يرمي هذا البحث إلى تسليط الضوء على جانب مهم من عوامل التطور في اللغة و آلياته، ألا و هو الاستعارة و إسهامها في إثراء اللغة عموما و التسمية الاصطلاحية خصوصا و قد عمدنا للوصول إلى هذه الغاية، إلى التعريف بالاستعارة - بما يلائم الموضوع - و التطرق إلى أهم وظائفها، ثم حاولنا إبراز أثرها في التسمية سواء في المجال اللغوي أو العلمي مع إعطاء بعض الأمثلة من المعجم الخاص ببعض هذه العلوم.

أهمية الاستعارة في التسمية الاصطلاحية

يرمي هذا البحث إلى تسليط الضوء على جانب مهم من جوانب " عملية التسمية " lexicalisation قديما و حديثا ألا و هو " التسمية الاستعارية " أي اعتماد الاستعارة أساسا في التسمية إلى جانب الآليات الأخرى .

كل لغة تسمي الأشياء بطريقتها الخاصة، فالتسمية - و منها الأسماء (الكلمات) - بالنسبة للإنسان هي الطريق المثلى لمعرفة حياته الاجتماعية و الثقافية و الحضارية و الدينية، ذلك لأن الإنسان عند تسميته الأشياء لا يقوم بتصوير الواقع بل يصور نظرة معينة للواقع من خلال الكلمات. هذا ما أدى بالباحثين إلى القول إن الاختلاف بين اللغات لا يأتي فقط من اختلاف في بنية الكلمات بل هو

Résumé

Le présent article traite d'un thème, tant ancien que d'actualité, qu'est la lexicalisation de la métaphore et son rôle dans le développement du lexique de la langue en général mais surtout dans la terminologie scientifique. Pour cela, L'étude s'est penchée sur la définition de la métaphore et ces principales fonctions. Nous avons aussi donné quelques exemples recueillis de différents domaines linguistiques et scientifiques. Tout cela dans le but de mieux connaître le développement du lexique d'une langue.

أيضا ناتج عن اختلاف في رؤية الناس إلى العالم الذي يحيط بهم(1)، ومن هنا كانت عملية نقل خبرة إنسانية من لغة إلى أخرى أمرا غاية في الصعوبة. كما أن القول إن التسمية مجرد نقل لواقع ما أمر رفضه اللغويون وغيرهم من المشتغلين في مجال التسمية.

اللغة وقضية التسمية:

شغلت مسألة التسمية بالإنسان منذ أن بدأ يعي العالم الذي يحيط به، ولا زال هذا الانشغال مطروحا إلى يومنا هذا، فلا يمكن للناس التعامل فيما بينهم دون معرفة المحيط الذي يتحركون فيه. ولعل أبسط ما يمكن معرفته هو أسماء الموجودات التي تشكل جزءا أساسيا من حياتهم. وإذا كانت معرفة الأشياء أمرا بسيطا - نسبيا - بالنسبة للإنسان، فإن عملية التسمية ليست بالأمر الهين - كما يتبادر إلى ذهن البعض - وأصعب من هذا هو معرفة كيف بدأ الإنسان يسمي الأشياء التي تحيط به وبأية لغة كان ذلك ؟

ظهر هذا التساؤل عند الإنسان منذ بداية عهده بالفكر والعلم، بحث الفلاسفة الإغريق والعرب وغيرهم عن أصل اللغة وكيف سُمي الإنسان الأول الأشياء، وقد ذهب بعضهم إلى اعتبار اللغة توقيفا أي أن الله علم الإنسان اللغة أي علمه أسماء الأشياء، ويمثل هذا الرأي ابن فارس في الكتاب "الصاحبي" والذي استند فيما ذهب إليه على الآية: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا".

يقابل هذا الطرح رؤية مغايرة تمثل النزعة الاصطلاحية التي تقول بأن اللغة تواضع أو تواطؤ بين الناس، أي أن الإنسان "اخترع" اللغة للتعبير عن حاجاته وللواصل مع غيره من الناس. يمثل هذا المذهب في ثقافتنا العربية ابن جني (2).

لم يكن العرب أول من بحث في قضية أصل اللغة فقد سبقهم الإغريق والهنود بقرون، إذ عرف عندهم من انتصر للمذهب القائل بأن اللغة اصطلاح وطائفة انتصرت إلى أن اللغة إلهام أو هي محاكاة للطبيعة. وكانت الغاية دائما من البحث عن أصل اللغة معرفة أصل الإنسان وبداية الخلق.

وإذا كان الإنسان قد قلل - وهو لم يتوقف - من البحث في أصل اللغة لأسباب فرضتها العلوم التجريبية الحديثة التي من خصائصها الصرامة في اختيار الوسائل

المعتمدة في البحث و الموضوعية في النتائج، فإن البحث في مسألة التسمية ما زال مستمرا إلى يومنا هذا و ذلك لأسباب عدة من بينها:

- ظروف الحياة و مستجداتها،
- التطور الذي تعرفه العلوم في جميع الميادين.

و لمواكبة هذه التطورات اخترع الإنسان وسائل عدة لاحتواء كل جديد، و كانت الكلمات الوعاء الأفضل الذي أبدعه الإنسان للحفاظ على كل ما يكتشفه أو ينتجه.

و لما كانت المعاني أوسع من الكلمات اخترع الإنسان وسائل أخرى تساعد في الحفاظ على إبداعاته و مختلف متطلبات حياته، و من ثم توريث تجاربه غيره، فبالإضافة إلى الكلمات التي عبرت مباشرة عن الأشياء، نلاحظ أن الإنسان عندما لا يهتدي إلى الكلمة الدقيقة المعبرة عن شيء ما يلجأ إلى وسائل أخرى منها الاشتقاق، النحت، التوليد، التعريب و الاقتراض و غيرها من الوسائل التي يمكن أن تفيد واضع الكلمات التي تم الاعتماد عليها في لحظة ما من حياة اللغة. و من ثم قيل "إن كل كلمة في اللغة تحكي قصة المجتمع الذي استعملها"، فقد يلجأ الإنسان إلى اختراع الكلمات في لحظات قوته، و قد يقترض الكلمات من لغة أخرى عندما يمر المجتمع بمرحلة انحطاط أو مرحلة تفاعل مع الثقافات الأخرى، و قد تعتمد اللغة على رصيدها المتداول و ذلك باستغلال تعبيرات يمكنها أن تكون عوناً لوضع اللغة في عملية التسمية و هذا ما سنحاول التطرق إليه من خلال دراستنا لـ "التسمية الاستعارية".

و حتى لا نخوض في كل ما من شأنه أن يفيد واضع الكلمات من اشتقاق و نحت و تعريب و توليد و اقتراض و غيرها ، نقتصر في دراستنا هذه على جانب لا يقل أهمية و هو الاعتماد على الاستعارة بوصفها آلية من آليات التسمية اعتمد عليها القدماء و المحدثون في توسيع معجم اللغة ، ذلك أن " كلمات اللغة دائما في كل مجتمع أقل بكثير جدا من تجارب هذا المجتمع ، فلو أن المجتمع اكتفى باستخدام الكلمات في معانيها الحقيقية لأصبحت تجاربه التي تعبر اللغة عنها محدودة و لضاع معظم تجارب المجتمع في متاهات النسيان " (3) أي أن واضع اللغة يعتمد إلى طريقتين لإنتاج الكلمات و هي إما الاعتماد على الآليات السابقة الذكر أو الانحراف بالمعنى العرفي للكلمة إلى معان أخرى و ذلك بالاعتماد على المجاز أو الاستعارة .

تؤدي الاستعارة وظيفة مهمة في عملية التسمية، و لا شك أن هذا الدور يتجلى أكثر في اللغة العلمية. فالمتتبع لتاريخ مختلف العلوم - سواء التجريبية أو الإنسانية بصورة عامة - يلحظ أن الإنسان يعمد في شرحه للمستجدات إلى تصوير ما هو جديد و شرحه بما هو مألوف لدى الناس مثل أسنان المشط ، مسك الفأر ، شقائق النعمان ، و نقرأ في معجم الإعلام الآلي مصطلحات منقولة عن المعجم الطبي " الفيروس VIRUS " و "الفيروس المضاد ANTI VIRUS " ... الخ .

لكن هناك تساؤل يفرض نفسه على الباحث و هو ما العلاقة بين الاستعارة كمحسن بلاغي و عملية التسمية -المعتمدة هنا على الاستعارة - باعتبارها نشاطا معجميا؟ و الإجابة على هذا التساؤل تفرض علينا العودة إلى تعريف الاستعارة، و التعرض لبعض وظائفها الأساسية.

تعرف الاستعارة بأنها " مأخوذة من العارية و هي نقل الشيء من حيازة شخص إلى شخص آخر حتى تصبح تلك العارية من خصائص المعار إليه و الإلصاق به ، و بهذا المعنى كانت ذات صلة بالمعنى الاصطلاحي الذي عرفت به لدى علماء البلاغة ، لما في نقل اللفظ من معنى عرف به في أصل اللغة إلى معنى لم يعرف به هذا اللفظ . حتى يصبح هذا اللفظ من الدلائل عليه و ذلك المعنى من لوازم هذا اللفظ " (4)

و لعل الجاحظ أبرز من يميل إلى هذا الرأي إذ يقول إنها " تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه " (5)

و ذهب ثعلب إلى الرأي نفسه ، فعرف الاستعارة بأنها " استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف " (6)

و جاء في منهاج البلغاء و سراج الأدباء لحازم القرطاجني أن الاستعارة " ادعاء معنى في الشيء للمبالغة في الشيء مع طرح ذكر المشبه " (7)

و ذهب ميشال لوقيرن MICHEL LE GUERN إلى أن " الاستعارة صورة نستطيع من خلالها نقل معنى خاص بالكلمة إلى معنى آخر تكون بينهما مشابهة تدرك بالعقل " (8)

نخلص من هذه التعريفات - و غيرها كثير - (9) إلى أن الاستعارة تغيير لدلالة كلمة أو عبارة ينتج عنه معنى آخر يمكننا استغلاله في عملية التسمية.

لا نتطرق في هذا المقام إلى التعريفات الأخرى للاستعارة و لا إلى علاقتها بالتشبيه. فمرادنا في هذا البحث ربط التعريفات التي سقناها سابقا بوظيفة الاستعارة في عملية التسمية خاصة .

قبل التطرق لوظائف الاستعارة المختلفة ، لا بد من الإشارة إلى أنها - و غيرها من الصور البلاغية - تتأثر بمحيط منتجيتها و ثقافتهم ، فإذا كان المجتمع بدويا تأثرت الصورة بالبيئة البدوية ، و قد عرفنا كيف ينتقي الشاعر الجاهلي من محيطه المادي ما يتلاءم مع ما يتصوره ، فالمرأة تشبه بالظبية ، و البقرة الوحشية ، و الرجل الشجاع بالأسد ...

و يتغير الزمن فتتغير مصادر الصورة ، و قد رأينا ما أنتجه الإسلام و انفتاح العرب على غيرهم من الثقافات الأخرى من صور جديدة لم يألفها العرب في جاهليتهم ، كما كان لظهور مختلف العلوم إسهام في تحويل بعض الكلمات إلى مصطلحات خاصة بها، من مثل المصطلحات الخاصة بعلوم الشريعة، و الفرائض، و الصلاة و الصوم و الإمام

أو بعض المصطلحات الخاصة باللغة و الأدب و النحو و الموضوع و المحمول و الإشارة، و مصطلح بيت الذي " سمي هذا الاسم تشبيها له بالبيت المعروف و هي بيت الشعر لأنه يضم الكلام كما يضم البيت أهله، و لذلك سموا مقاطعه أسبابا و أوتادا تشبيها لها بأسباب البيوت و أوتادها " (10)

و قد كان للثورة العلمية في الغرب و انفتاحهم على غيرهم أثر عميق في تحريك عملية إنتاج المصطلح العلمي معتمدين في ذلك على رصيدهم الثقافي القديم المتمثل في الثقافة الإغريقية خاصة ، نلاحظ هذا بوضوح مع المصطلحات التي استخدمها الأدباء و علماء النفس خاصة و لعل فرويد في مقدمة من يمثل هذا التيار ، إذ أن كثيرا من الأمراض التي وصفها تحمل " أسماء " لها صلة بالموروث الإغريقي مثل - عقدة أوديب، عقدة أكلترا- و إذا انتقلنا إلى مجال أكثر حداثة، ألفينا العلماء يستخدمون في الدراسات المعلوماتية كثيرا من المصطلحات ذات طبيعة استعارية، لها صلة بالموروث الثقافي الغربي القديم، منها طائر النار firebird أو جدار النار firewall و هما ما اصطلح عليهما في الإعلام الآلي "بمضادات الفيروسات" antivirus و حصان طروادة cheval de

troie و هو فيروس (virus) ، و القبة الحمراء redhat و النوافذ windows للدلالة على أنظمة التشغيل .

أما إذا انتقلنا إلى العلوم الإنسانية في المرحلة التاريخية القريبة نلاحظ أن مجال اللسانيات مثلاً تأثر في مرحلة ما بالدراسات التاريخية التطورية المتأثرة بنظرية داروين، و قد أفرز هذا التأثير لونا من المصطلحات الجديدة نذكر منها: اللغة الأم، اللغات الأخوات، العائلة اللغوية، حياة الألفاظ...

و كان للمدرسة البنوية و المدرسة السلوكية و التوليدية مصطلحاتها الخاصة التي تأثرت بالمدرسة الاجتماعية أو النفسية أو تلك المتأثرة بالفكر الرياضي الحديث كما هو الشأن بالنسبة لمدرسة تشومسكي و جل مصطلحاتها عبارة عن كلمات أو عبارات انتقل بها العلماء من مجال معرفي آخر خاص، نأخذ على سبيل المثال: النظام، البنوية، البنية، المثير، الاستجابة، البنية السطحية، البنية العميقة.... نخلص من هذا العرض إلى أن للاستعارة وظائف متعددة نجملها فيما يأتي:

(1) وظيفة التسمية أو التعيين:

يرى بعض الباحثين أن للاستعارة وظيفة أساسية تدعى وظيفة التسمية، بل ذهب بعضهم إلى عد الاستعارة أصلاً في التسمية، أي أن الأشياء في بداية نشأتها أخذت أسماء ذات طبيعة استعارية ثم فقدت هذه الاستعارات قوتها التأثيرية مع مرور الزمن فغدت عند مستعملها و كأنها استعمالات حقيقية (11) أي أن هذه الكلمات و العبارات لا توحى عند متلقيها إلا بالشئ الذي تعبر عنه و يغيب عن الأذهان ما كانت عليه هذه الكلمات في بداية نشأتها، و قد ناقش شارل بالي Charles Bally هذه القضية في كتابه " traité de stylistique " عندما تطرق لموضوع تطور الصورة، حيث اعتبر أنها تنتقل من حيث كونها صورة انفعالية، أي ذات إحياءات انفعالية ، إلى "صورة ميتة" لتستقر في النهاية كمعبر عن معنى هو في العرف الجديد حقيقي مثل: شرائح المجتمع أو الطبقات الاجتماعية المأخوذة من الجيولوجيا، الفيروس و هو من المصطلحات الطبية، القرصان pirate و هو في لغة الإعلام الآلي مخترق غير شرعي للمواقع الإلكترونية و غيرها كثير. (12)

(2) الوظيفة المعرفية:

قد يكون للاستعارة وظيفة معرفية أي استخدامها في توضيح جوانب مبهمة أو بعيدة المنال عن الإنسان بما هو مألوف كقولنا عن الإنسان: حيوان ناطق، أي أن المراد توضيحه ليس الإنسان ككائن بيولوجي يشترك في خصائص كثيرة مع الحيوان، وإنما المطلوب هو ما يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات فجاء بالناطق الذي هو شيء معروف لتوضيح الجانب المتميز في الإنسان وهو المعنى الغامض. و الأمثلة في هذا المجال متعددة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، الانغماس اللغوي أو الحمام اللغوي (bain linguistique).

(3) الوظيفة الجمالية أو التزيينية:

و الهدف منها التأثير أو الإقناع و في هذه الحال لا يكفي الإنسان بتعريف الاستعارة بأنها مجرد "نقل لفظ من معنى عرف به إلى معنى آخر لم يعرف به هذا اللفظ..." و إنما علينا أن نبحث في هذه الحال عن علاقتها بالأصل الذي تفرعت عنه، و هو التشبيه و ألا نكتفي بالقول إنها فقط تشبيه حذفته منه الأداة، كما أنه لا يجوز القول إنها مجرد تغير في المعنى و إنما للاستعارة وظيفة أعمق من ذلك تتمثل في قدرتها على إعطاء الكثير من المعاني في الألفاظ البسيرة و ذلك من خلال انتقاء الجوانب المشتركة بين الأشياء المتباعدة و تقريبها في أروع صورة للقارئ، أو السامع، يكون ذلك مع الاستعارات التي يحاول فيها الإنسان المبدع تشخيص المعنويات و تجسيدها ، أو بث الحياة و الحركة و النطق في الجماد.

نستطيع قراءة هذه المعاني في القرآن الكريم و في كثير من الكتابات عند العرب في مختلف العصور.

خلاصة البحث أن للاستعارة إسهاما كبيرا في عملية خلق المصطلحات "خاصة" و تطوير اللغة، إلا أنه، على الرغم من أهمية هذه الوظيفة فإنه لا يمكننا أن نعممها على كل المادة اللغوية، لأن الإيغال في الاعتماد على الاستعارات قد يؤدي إلى عملية عكسية و هي الخلط بين المعاني الحقيقية و المجازية و عدم معرفة أيهما الأصل مما يزيد من تعقيد عمل الباحث في مجال المعجمية عموما و مجال المصطلحات العلمية خصوصا.

الهوامش

- (1) جورج مونان G.Mounin: المسائل النظرية للترجمة
ترجمة: لطيفة زيتوني - دار المنتج العربي - لبنان - ط 1 - 1994 - ص 113 وما بعدها .
- (2) J.Kristeva : Le Langage, cet inconnu
Edition du Seuil, Paris 1981, p 129
- (3) تمام حسان: اللغة العربية معناها و مبنائها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1979، ص 320 .
- (4) محمد سيد شيخون: الاستعارة نشأتها و تطورها، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ط2، 1984، ص 5 .
- (5) البيان و التبيين: تحقيق عبد السلام هارون، 12، القاهرة 1948 ج 1، ص 158 .
- (6) محمد سيد شيخون ، الاستعارة نشأتها و تطورها ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ط 2 ، 1984 ، ص 12 .
- (7) حازم القرطنجي: منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار العرب الإسلامي، ط3، بيروت لبنان، 1986 ، ص412 .
- (8) sémantique de la métaphore et de la métonymie. Larousse, 1973, p11.
- (9) أنظر عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي ، القاهرة ص 67 .
- (10) ابن منظور، لسان العرب، مادة (بيت)
- (11) F.Nietzche: le livre du philosophe. Sigma édition, p29
Et : Michel le Guern: sémantique de la métaphore et de métonymie , p82.
- (12) أنظر M.C Belaid : Architecture et Fonctionnement des Ordinateurs , pages bleues , Algérie, première édition , 2001